من ذكريات الحداثة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان ذلك فى « العيد الكبير » — كما كنا نسمى « عيد الأضحى » — وكنا يومئذ تلاميذ فى مدرسة ثانوية ، ومساكننا بعضها قريب من بعض ، فنحن لهذا أصدقاء وإخوان . فاقترح أحدنا فى صباح يوم أغبر أن نذهب فى ليلتنا تلك إلى «دار التمثيل العربى» — أو تياترو الشيخ سلامه حجازى كما كنا ندعوه — لنشهد رواية « روميو وجولييت » فاعترضت على ذلك وقلت : إنه يكلفنا نفقة لا قِبَلَ لنا بها ، فقد كان الواحد منا يأخذ فى اليوم من أبيه أو ولى أمره قرشاً فى اليوم ، وكنا كثيراً مانعجز عن إنفاق القرش كله لأنا لم نكن نجلس على « القهاوى » ولا كنا ندخن أو نشرب خمراً ، ولم تكن السينما قد ظهرت فى تلك الأيام ، فكان يتفق أن يبقى مع كل منا فى آخر الأسبوع بضعة قروش — اثنان أو ثلاثة ، أو أربعة فى بعض الأحيان — فنفرح ، ونركب النيل بزورق ، بضع ساعات . ولكن هذه القروش القليلة لا تكفى للذهاب إلى مسرح الشيخ سلامة ، فما العمل ؟؟ وأصر الاخوان على ذلك وقال قائلهم : أمامنا النهار كله ، فلنحتل وليدبر كل منا أمره . فخجلت أن أقول إنى عاجز عن الاحتيال والتدبير ، ومضيت عنهم ببال كاسف وقلب حزين

ورأتنى أمى — وكانت هى أبى وأمى — فقالت « مالك ؟ » ولم أكن أستطيع أن أكذبها أو أكتمها شيئاً إذا سألتنى ، فقلت : « إن زملائى قد اتفقوا على الذهاب فى هذه الليلة إلى تياترو الشيخ سلامة ، وليس معى ما يكفى لذلك ، فأنا لهذا مهموم مكروب »

قالت : « كم معك ؟ »

قلت : « ثلاثة قروش ومليمان »

قالت : « وكم تريد ؟ »

قلت : « ريال »

قالت : « أما ريال فلا ... اذهب إليهم وأنبئهم أنك لست معهم »

قلت : « ولكنى أريد أن أذهب »

قالت : « لا شك ... ولو كان معى فضل مال لأعطيتك منه ، ولكن كل ما عندى — على قلته — لازم لمطالب البيت إلى آخر الشهر ، ولن يستطيع أحد منا صبراً على الجوع ، فاذهب وافعل ما أشرت عليك به »

فتركتها وقد زاد كربى وثقل همى ، وفتحت الباب ووقفت على رأس السلم أفكر فيما أقول لأصحابى ، وأنا مطرق ويدى على الدرابزين ، وكانت عندنا فتاة صغيرة فى مثل سنى ، تخدمنا ، فخرجت ورأتنى ثم قالت لى :

« ما لك يا سيدى ؟ »

قلت : « لا شىء ! » . وأشرت لها بيدى أن تدخل

قالت : « ولكنك مطرق .... »

قلت : « ولم لا أطرق إذا شئت ؟ ؟ هل هذا ممنوع ؟ »

قالت : « لا ... ولكنك مكتئب ! »

قلت : « ربما .... »

قالت : « يعز علىّ أن أراك هكذا .... »

قلت : « أشكرك »

قالت : « ألا تخبرنى ماذا بك ؟ »

قلت : « لا شىء ! »

وماذا بالله أقول لها ؟ ؟ انها خادمة ، فكيف أطلعها على

غفلة . والحقيقة فى الحياة كالحقيقة فى المنطق إذا لم يصدق البرهان على كل حالاتها ، لم يصدق على حالة من حالاتها . فاذا كنا ضعفاء كرماء ، أعزاء ، سادة على التاريخ القديم ، فنحن ضعفاء فقط...

إن الكبراء فى الشرق كله لا يصلحون إلا للرأى ، فلا تسوموهم غيرَ هذا ، فهم قد تلقوا الدرس من أغلاطهم الكثيرة ، وبهذا لن تفلح حكومة سياسية فى الشرق الناهض ما لم يكن شبابها حكومة أخلاقية يُمِدُّها من نفسه ومن الشعب فى كل حادثة بالأخلاق الحاربة

يا بنى إن القوى لو اتفق مع الضعيف على كلمة واحدة لا تتغير لكان معناها للأقوى أكثر مما هو للأضعف . فان هذا القوى الذى يعمل مع الضعيف يكون فيه دائماً شخص آخر مختف هو القوى الذى يعمل مع نفسه

هكذا هى السياسة ؛ أما فى الانسانية فلا ، إذ يكون الحق دائماً بين الاثنين أقوى من الاثنين

(سيدى بشر . اسكندرية) مصطفى صادق الرافعى

مرى ؟ ؟ وصحيح أنها رُبّيت فى بيتنا — معى — وانا جميعاً ننظر اليها كأنها واحدة منا ، ولكنى لم أعتد أن أرفع الكلفة بينى وبينها على الرغم من ذلك . فلم يسعنى إلا أن أتحدر وأتركها .

ولكنى لم أقل لاخوانى شيئاً ، واكتفيت بأن أجلس على كرسى أمام الباب وأنا أقول لنفسى : « من الآن إلى العشاء يفرجها ربك ... ولست أعرف لى الآن عذراً غير الأفلاس أعتذر به لاخوانى ، ولكن الله قد يفتح علىّ ويلهمنى العذر المقبول »

ولم أفكر قط فى وسيلة لتدبير الريال المطلوب ، فقد كنت من ذلك على يأس كبير ؛ واقتنعت بما قالت لى أمى ، فصار همى أن أهتدى إلى عذر يقتنع به الاخوان ، ولا أخجل أنا منه . وإنى لكذلك وإذا بالفتاة الخادمة تدنو منى وتهمس فى أذنى أن تعال ، فأسألها فتقول : « كلّم » وتسبقنى إلى الفناء فالسلم ، وأصعد درجات فتستوقفنى فألتفت اليها فتمد يدها بريال تضعه فى كفى فأعجب وأنظر اليه واليها وأسألها :

« ما هذا ؟ »

فتقول : « ألست تريد ريالاً ؟ هذا هو »

فأقول — وقد زاد عجبى — : « ولكن من أين لك هذا الريال ؟ »

فتقول : « إنه من مرتبى »

فأسألها : « هل طلبته من أمى ؟ »

فتقول : « نعم »

فأعود أسألها : « وماذا قلت لها ؟ ؟ لأى شىء طلبته منها ؟ »

فتقول : « طلبته والسلام »

فأقول : « كلا . . . إن أمك هى التى تقبض مرتبك كل بضعة شهور ، ولم يحدث قط أن أخذت أنت شيئاً منه ، فكيف رضيت أمى أن تعطيك الريال هذه المرة ؟ قولى الحق . . كيف أخذته ؟ »

فأغضت وقد اتقد وجهها — وكانت بيضاء حمراء — وقالت : « سرقته لك ! »

فصحت وقد فزعت : « إيه ؟ »

قالت : « لا تصح هكذا ! ! أتريد أن يقتلونى ؟ »

قلت : « ولكن السرقة ؟ ؟ كيف تجرئين ؟ »

قالت : « وهل هذه سرقة ؟ إنه من مرتبى وسأخبر ستى بعد أن تذهب أنت إلى التياترو »

قلت : « ولكن من أين عرفت أنى أريد ريالا ؟ »

قالت : « سمعت ستى وستى تتكلمان » — تريد والدتى وجدتى —

قلت : « ثم غافلتهما وسرقت ؟ أليس كذلك ؟ »

قالت وهى مطرقة : « نعم »

قلت : « ولماذا ارتكبت هذا الأثم ؟ »

قالت : « لم أستطع أن أراك هكذا »

قلت : « شكرا لك ... ولكن هذا الريال يجب أن يرد إلى مكانه ... حالا ... فمن أين أخذته ؟ »

فوصفت لى المكان الذى كان فيه . فقلت لها : « يجب أن تعلمى أنى لا أريد أن أذهب إلى التياترو ، ولو كانت لى رغبة لألححت على أمى ، ولأعطتنى ما أريد . ثم يجب أن تقسمى ألاّ تعودى إلى مثل هذا العمل فانه إثم كبير ، وإلا أخبرت ستك ، وأنت أدرى بما يكون إذا علمت »

وصعدت قبلى ، وعدت أنا والريال معى إلى كرسىّ على الباب أمام البيت ، فرأحد أخوانى فناديته وقلت له : إنى آسف ، وإنى لن أكون معهم الليلة ، وليس هذا لقلة المال (وأخرجت الريال من جيبى وبسطت به كفى له ليراه ، ولكن سبباً آخر يحول دون الذهاب

ولما تركنى صعدت إلى غرفة والدتى ، وكانت مشغولة باعداد الطعام فى المطبخ ففتحت خزانة الثياب وهممت بأن أدس الريال حيث كان وإذا بوالدتى إلى جانبى تسألنى :

« ما هذا الذى بيدك ؟ »

فمددت يدى إليها بالريال وقلت وأنا مضطرب والعرق يتصبب :

« ريال ، كما ترين »

قالت : « ريال ؟ أخذته ؟ »

فلم أدر ماذا أقول ؟ ! أأقول الحق فيحل غضبها بالفتاة المسكينة التى دفعها العطف الى السرقة ؟؟ أم أتهم نفسى وأنا برىء ؟! ولم يكن أحد الأمرين أخف على نفسى من الآخر ، ففكرت بسرعة ، فم أجد أن فى مقدورى أن أشى بالفتاة وأعرضها لنقمة أمى ، وأجعل جزاءها هذا السوء على ما أرادت من الاحسان الى وإن كانت قد أخطأت السبيل

فقلت : « نعم ... أخذته من هنا ... ثم راجعت نفسى ، فندمت وقد كنت أريد أن أعيده الى مكانه ... فهل تصدقينى »